المجلد: 16 العدد: 02/ سبتمبر 2020
ص: 313 - 322
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

المرجعيات الفلسفية للمنهجين السميائي والتفكيكي

The philosophical references of the semiotic and deconstructive approaches

د. حمادي هواري*

جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر (الجزائر)

Houari.hammadi@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2020/06/06	تاريخ القبول:2020/06/15	تاريخ النشر: 2020/09/01

ملخص: أردنا في هذا المقال أن نكتشف المرجعيات الفلسفية لمنهجين رائدين في القراءات النقدية المعاصرة للنصوص في الدراسات الأدبية الغربية والعربية على حد سواء، ألا وهما المنهجين السيميائي والتفكيكي، الأول بالرجوع أصوله الأولى في الطب الأبقراطي، والمنطق اليوناني، ومنابعه اللاحقة في الفلسفات والمناهج المعاصرة، كالفلسفة البنيوية، والفلسفة البراغماتية، وفلسفة امبرتوا ايكو، والثاني كمنهج متعدد المشارب بين مناهج ترتد إلى علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثربولوجيا...، وكل المناهج التي تساهم في الحفر أو الدراسة الأركيولوجية للنص.

الكلمات المفتاحيّة: السميائيات; المنطق; التفكيك; الفلسفات; النقد.

Abstracat: In this article, we want to discover the philosophical references of two pioneering approaches to the contemporary critical readings of texts in both Western and Arabic literary studies, namely, the Simei and Tafikki methods, the first by reference to its early origins in Greek medicine, Greek logic and its subsequent origins in contemporary philosophies and philosophies such as structural philosophy , Pragmatical philosophy, Amberto Eco philosophy, and the second as a multi-layered approach between approaches to psychology, sociology, anthropology ... and all the methods that contribute to the excavation or archeological study of the text.

Key words: amphibians; Logic; Disassembly; Philosophies; Cash

مقدمة:

بعد التطور الحاصل في العلوم الإنسانية وعلم المناهج في الفترة المعاصرة، عرفت الدراسة النقدية للنصوص تطورا واضحا، تمثل في ظهور مناهج جديدة ومتنوعة في مجال قراءة النصوص بأنواعها المختلفة. الأدبية والدينية والفلسفية... ولكن حقيقة هذه المناهج لا يمكن ربطها بمعطيات معاصرة فقط بل تضرب بجذورها في أعماق التفكير الفلسفي منذ لحظاته الأولى مع اليونان، وبالتالي أصبح الكشف عن جذورها الأولى أمرا ملحا لمعرفة حقيقتها وآلياتها وكيفية تطبيقها في فهم مختلف النصوص.

* المؤلف المرسل

لا نستطيع إنكار وجود أرضية فلسفية لأي علم ولأي منهج علمي تأسس قديما أو راهنا ، و هي ما أردنا أن نكتشفها في منهجين رائدين في القراءات النقدية المعاصرة للنصوص في الدراسات الأدبية الغربية والعربية على حد سواء، ألا وهما المنهجين السيميائي والتفكيكي، الذين يعتبران من أهم المناهج التي أفرزها التطور الحاصل في العلوم الإنسانية مؤخرا، وذلك حسب طابعهما الشمولي الذي يضم عددا هائلا من المناهج التي تساهم في اكتشاف المدلولات العميقة للنصوص، من خلال علاماتها ورموزها من جهة ومعانيها المتحفية والمتحجبة من جهة أخرى.

على الرغم مما يبدوا لنا من أن المنهجين السميائي والتفكيكي، يبدوان من إنتاج الفكر الفلسفي المعاصر إلا أنهما يضربان بعمق في التفكير الفلسفي في مختلف مراحله، فالمنهج السيميائي يرتد في جذوره إلى أرضية فلسفية عميقة، تعود أصولها الأولى إلى الطب الأبقراطي، والمنطق اليوناني، ، والحكم عينه ينطبق على التفكيك الذي يجد جذوره القديمة في الفلسفات الكلاسيكية والعتيقة.

انطلاقا مما سبق، نهدف في هذا البحث إلى مقاربة فلسفية للجذور التي تقف وراء المنهجين السميائي والتفكيكي كمنهجين معاصرين لكنهما في الوقت نفسه يضربان بجذورهما في أعماق تاريخ الفكر الفلسفي والتراث البشري بألوانه المختلفة، وبالتالي معرفة المنهجين من حيث أسسهما وقواعدهما وتوظيفهما ... يدرك في إطار العودة لجذورهما الأولى.

إشكال بحثنا واضح وديقيق: فإذا كان المنهجين السيميائي والتفكيكي وليدا الفترة المعاصرة وما عرفته من تطور في المناهج والعلوم الإنسانية والاجتماعية فلماذا يضربان بعمق في التفكير الفلسفي القديم؟

من أجل الإجابة على هذا السؤال، سنحاول سبر مختلف المرجعيات الفلسفية والأسس المنطقية، التي استفاد من منها المنهجين السيميائي والتفكيكي حسب العنصرين التاليين:

المنهج السيميائي وأسسه الفلسفية: بينا فيه طبيعة هذا المنهج وأسسه الفلسفية الكلاسيكية والمعاصرة.

المنهج التفكيكي وأسسه الفسفية: بينا فيه حقيقة هذا المنهج وأسسه الفلسفية الكلاسيكية والمعاصرة.

1_ المنهج السيميائي وأسسه الفلسفية:

التفكير حول قضايا السيميائيات كالعلامة والاستعارة والرمز ليس وليد الفكر المعاصر بل شغل الفلاسفة منذ العصور القديمة واستمر في العصر الحديث وتطور في أيامنا هذه، ويمكن أن ندرك ذلك في العودة إلى مفهوم السميائيات و أسسها الفلسفية.

1-1مفهوم السميائيات:

في اللغة العربية ترد كلمة سيميائيات إلى سيما وسيماء وسيمياء ...التي تعني العلامة، جاء في لسان العرب: "السومة والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة، وسوَم الفرس: جعل عليه السيمة... قولهم عليه سيما حسنة معناه علامة، وهي مأخوذة من وَسَمْتُ أَسِمُ، قال والأصل في سيما وسمي فحولت الواو من موضع الفاء فوصعت في موضع العين، كما قالوا ما أطيبه و أيطبه فصار: سومي، وجعلت الواو ياءا لسكونها وانكسار ما قبلها" (1)، فمن الباحثين والمترجمين العرب من تمسك بهذا الأصل الاشتقاقي العربي فاستعمل السيمية أو السيماء أو السيمياء أو السميائية بالياء الصناعية أو السميائيات، ومنهم من اكتفى بتعريب المصطلحين الأجنبين سيميولوجيا أو سيميوطيقا أو اقترح تسمية أخرى مثل "علم العلامات أو علم الأدلة أو الرموزية أو

الدلائلية" (2)، وبالتالي السميائيات على خلاف بعض المصطلحات النقدية المعاصرة تضرب بجذورها في ثقافتنا العربية، وهو أحد أسرار تلقيها بقوة في النقد العربي المعاصر .

في المفهومين الاشتقاقي والاصطلاحي، ترجع السيميائيات إلى مفهوم العلامة والتي تعرف ب –signe-وهي كما ورد في موسوعة لالاند (LALANDE) الفلسفية: "إدراك راهن يسوغ، بكيفية أكيدة نسبيا، إقرارا متعلقا بأي شيء آخر...وتيرة ضربات القلب علامة حمى، جرس الإنذار إشارة إلى حريق...غرض مادي شكل أو صوت، يقوم مقام شيء غائب وإدراكه مستحيل"(3). فهي في الاشتقاق تدل على الارتباط بين الشيئين في المعنى، وبين الحاضر والغائب في الدلالة، و يبين 'أمبرتو إيكو'(EMBERTO ECO)أنها " تستعمل لتحويل خبر، من أجل قول أو تحديد شيء يعرفه الشخص، ويعرفه الأشخاص الآخرون كذلك" (4) فهي أداة للاتصال والتبليغ، و يمكن أن نردها في البداية إلى تصور عام "يهتم بكل مجالات الفعل الإنساني:إنها أداة لقراءة وفهم مختلف مظاهر السلوك الإنساني بدءا من الانفعالات البسيطة ومرورا بالطقوس الاجتماعية وانتهاء بالأنساق الإيديلوجية الكبرى(5) أما في مفهومها الاصطلاحي كعلم قائم بذاته، تتعدد مدلولاها، فهي على سبيل المثال لا الحصر ، تعني عند عالم اللغويات السويسري 'فرديناند دوسوسير'(F. de Saussure)"مبتكر اللفظة " علم إشارات واسعا لا تشكل اللسانيات سوى جزء منه" (6)-.- فهي بمثابة تطوير للبحث في اللسانيات تمثل –علم العلامات- كما ترتبط بطرق المعنى والاستدلال . ويمكن القول كتعريف عام لها، أنها: "علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنثربولوجيا يبحث في طرق إنتاج المعاني من الأشياء، مما يجعلها نظرية تأويلية أو صياغة جديدة لقضايا فلسفية ومعرفية موغلة في القدم، لا يستطيع الباحث أن يفهم مختلف المسائل السميائية إلا في إطارها" (7).

1-2أصول السميائيات: تعتبر السميائيات نشاطا معرفيا موغلا في القدم من حيث أصوله وجذوره ، حيث تعود المحاولات الأولى في ميدانها إلى ما قبل اليونان وقبل وجود المنطق الصوري، وترتبط بما يسمى بأشكال التواصل الأولى والوسائط الأولى التي أقامها الإنسان بينه وبين العالم الخارجي، ومنذ البداية الأولى للتجريد والتحرر من العالم المحسوس ومن سلطان الطبيعة، أين بدأ الإنسان يستعمل العلامات لكي يفهم بها مدلولات الأشياء، ولكن بظهور الفلسفة الطبيعية وفلسفة اللغة والمنطق، عرفت تطورا واضحا كان سندا لتأسيسها كعلم في الفترة المعاصرة مع الفلسفة البراغماتية وعليه يمكن أن نفهم أصولها حسب عدة مستويات أهمها:

1- الأصول الفلسفية والمنطقية في الفلسفات القديمة والوسيطية:

ارتبط علم السيميائيات بمختلف الأصول الفلسفية المؤسسة له، وعلى رأسها المباحث المتعلقة بفلسفة اللغة والمنطق اليوناني، فمختلف الفلسفات والأبحاث المنطقية القديمة لدى أرسطو(ARISTOT) والرواقيين والقديس أوغسطين (AUGUSTINE) في القرون الوسطى، قامت بمساءلة العلامات والبحث فيها في إطار مسائل المعرفة، الوجود، القيم الألوهية... حيث يؤكد أهم المشتغلين بالسميائيات وعلى رأسهم 'أمبرتو إيكو'(EMBERTO –ECO) أن المدخل الأساسي للسميائيات يعود بجذوره إلى الفلسفة الكلاسيكية وفلسفة اللغة بشكل خاص، حيث يرى أن "كل محاولة ترمي إلى إضفاء طابع منطقي على الوجود يمكن إعدادها

بمثابة دافع خفي وشرط ابستمولوجي لكل تفكير سيميائي فهو يوافق تودوروف في أن بذور المباحث السميائية قديمة ومتجذرة في التراث العالمي الغربي " (8)،" فإيكو عندما يبني مشروعه الجوهري وهو إعادة بناء تاريخي للسيميائيات يستعين بمفاهيم الاستدلال، المقولات، المحمول، الموضوع، شجرة فورفوريوس التعريف وغيرها وهي كلها مواضيع تنتمي إلى المنطق الصوري في الأساس" (9) وبالتالي المنطق كآلة أو ارغانون وطرق للاستدلال، يلعب دورا هاما في بناء التفكير السيميائي لأنه يدخل في انتاج المعنى بما يتيحه لنا من طرق الاستدلال، "فالاهتمام بالعلامات عريق في الفكر الإنساني، إذا كانت موضع اهتمام الفلاسفة والعلماء منذ االقديم. ففي الفكر اليوناني نجد أفلاطون يهتم بالعلامات اللغوية وطابعها المحاكاتي ..ونجد أرسطو أيضا ينشغل بهذه العلامات ضمن نظريته حول المعنى وحول الشعر" (10)، حيث اهتم مختلف فلاسفة اليونان بالعلامة والمعنى، منذ أفلاطون (PLATON)و بأرسطو الذي أسس المنطق الصوري معبرا عن ما يمكن أن نسميه بعلم السميائيات القديم عن طريق العلاقة الوثيقة بين الاستدلال والعلامة، وصولا إلى الفلسفة الهلنسنية ومدرسة الاسكندرية، ففي عصر ما بعد الفلسفة السقراطية، ظهر ما يسمى بالمنطق الرواقي الذي ركز على المنطلقات الفلسفية التي تأسست عليها فكرة العلامة، وشروط إنتاج الدلالة، التي تجعل العلامة فضاء للاستدلالات المحتملة عندما تتحدد وفق آلية الاستلزام، إذ تمثل عندهم " قضية مكونة من ربط صحيح يكشف التالي، وبتأسيسهم لمنطق الشرطيات يكونون أول من تحدث عن العلامة بصيغة الاستلزام التي وضعت عندهم بدل صيغة التكافؤ التي تمثل التطابق بين العبارة والمضمون، هو ما يبين كيفية انبثاق المعاني حسب العلاقة المقدم والتالي" (11) وبالتالي يمكن إيجاد جذور فلسفية في الفكر اليوناني للسميائيات تجلت في المنطق على وجه الخصوص، وهو ما سيستمر مع فلسفة القرون الوسطى المسيحية والإسلامية مع أوغسطين وتوما الأكويني ...و غيرهم من فلاسفة الإسلام كالفرابي وابن سينا ...الذي اهتموا بالعلاقة بين المعنى والعلامة.

2-الممارسات الثقافية والأصول الفلسفية العربية الإسلامية:

لا يمكن ربط الأصول الأولى للسيميائيات بتراث فلسفي غربي فقط أو أي تراث واحد معين ومحدد، وذلك لأنه "لا يخلوا التراث الفكري لأي شعب من تصورات سيميائية. ويتضح ذلك أكثر حينما يتعلق الأمر بالتراث العربي، ولاسيما هو تراث بلاغي أساسا...كما حفلت كتب المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والبلاغة والنقد بتصورات معمقة حول العلامات اللغوية وغير اللغوية. مما يسمح بتبين نظريات سميائية في غاية النضج" (12) ، فناهيك عن الاستعمال الواسع لكلمة سمة وما يشتق منها في المعاجم اللغوية العربية كما أشرنا آنفا، تجد سيمئيات الكثير من الحضور في الممارسات الثقافية للإنسان العربي القديم في الميادين المتعلقة بالفراسة وعلوم السحر والطلسمات التي يقول عنها ابن خلدون: "وأُكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء، لأنها من توابعها، ولأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما تكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر" (13) فالسحر في ثقافتنا العربية على سبيل المثال لا الحصر يعتبر من الممارسات السيميائية الموغلة في تراثنا ويعتبر من توابع صناعة السمياء، هذه الأخيرة لم تقف عند حد الحضور في تلك الممارسات بل يمكن التأصيل لها مختلف العلوم اللغوية العربية وفي الرؤى الفلسفية الإسلامية، ففي مجالات علوم اللغة تجلى في البلاغة العربية وعلوم المناظرة وأصول الفقه ...منذ وجودها

الأول قوة العلامة في بناء المعنى، أما في الفلسفة الإسلامية عند الفارابي(ALFARABI) وابن سينا(AVICENNE)...فقد سعى مختلف فلاسفة الإسلام إلى تجاوز الدلالات اللفظية للمفاهيم التي وضعتها الفلسفة اليونانية إلى أصناف وأنواع من العلامات، "كما خلص مبارك حنون في بحثه الهام حول التفكير السيميائي العربي القديم إلى أن العرب القدامى -مناطقة وبيانيين – أبدعوا أفكار أصيلة تتقاطع مع عدد غير يسير من أفكار أنتجتها الثقافات السيميائية الحديثة- " (14) وذلك حسب ما قاموا به من تصنيف للعلامات حسب مكوناتها والروابط التي تجمع بينها والمجالات التي توظف فيها ومختلف المصادر والاستعملات المتعلقة بها.

3- الأصول الفلسفية الحديثة والمعاصرة:

في الفلسفة الحديثة اعتبر 'كانط'(KANT)1724-1804- مبشرا بعلم السيميائيات، وذلك لأنه اهتم بالمنطق وفكرة المقولات الكم والكيف والإضافة والجهة والعناية كتصورات قبلية تنطبق على الحس والعيان وتفهم مدلولاته، وقام بتحليل التصورات، والجمع بين القبلي والبعدي، والتمييز بين الظواهر والأشياء في ذاتها، وبين الأحكام التحليلية والتركيبية كأسس لتحديد معاني الموجودات وبناء العلامات، حيث واصل مسيرة الجدل الذي أشرنا إليه سالفا، من خلال ما يعرف عنده بالديالكتيك المتعالي الذي يمثل " العلم الباحث في تجاوز العقل لحدود التجربة ابتغاء تحديد الموضوعات بوجه عام بوصفها أشياء في ذاتها مع أنها ليست معطاة في التجربة" (15). أما في الفلسفة المعاصرة، يمكن أن نفهم الأسس الفلسفية واللغوية للسميائيات التي اعتمد عليها مختلف النقاد الغربيين والعرب على حد سواء،انطلاقا من مرجعيتين أساسيتين هما :

الأولى: تمثل أبحاث علماء اللغة بزعامة 'دوسوسير' تعتبر تبشيرا بالسيميائات التي اعتبرها انطلاقا من اهتمامه باللسانيات علما للعلامات، تفهم في إطار المسائل اللسانية وحسب نظريته القائلة باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، الذي ربطها بعلم النفس الاجتماعي، وسعى على دراسة حياة العلامات داخل المجتمع من خلال مفهوم المواضعة والاتفاق وفي إطار ثائياته المعروفة كالدال والمدلول واللسان والكلام.

الثانية: تمثل أبحاث الفلاسفة البراغماتيين بزعامة 'بيرس' (PIERCE)1839- 1914 الذي تجاوز ربط السيميئيات باللسان سعى إلى ربطها بالمنطق كقواعد الحصول على الدلالات، وبعملية الإدراك التي تربط بين الإنسان والموضوع عن طريق الوعي، فهي في نظره نظرية تأويلية تمثل بحثا في الأصول الأولية لانبثاق المعنى، وطرقا استدلالية يتم بموجبها الحصول على دلالات وتداولها، وهي في جوهرها منطق لأنه يعتبر اسما قديما لها، ويربطها بالكون كشبكة غير محدودة من العلامات تفهم في إطار منطق جديد يرتبط بالعلوم الرياضية بالدرجة الأولى، وتستوعب الوجود في ثلاث مستويات" ما يحضر في العيان، وما يخضر في الأذهان، وما يتجلى خلال اللسان" (16) .

إذن يمكن القول أن هناك مرجعيات فلسفية موغلة في القدم وقفت وراء التأسيس للسميائيات، ولا مفر للمهتم بها والبحث فيها، من الإطلاع على الأبحاث اللغوية والفلسفية والمنطقية خصوصا منذ الفكر اليوناني مع أفلاطون وأرسطو والرواقيين إلى غاية الفكر الفلسفي المعاصر بتوجهاته المختلفة، إذا أراد فهم أصول

ومنابع المنهج السميائي التي تعتبر شرطا لفهم أسسه وقواعده في الحاضر وفي الدراسات النقدية الراهنة والمستقبلية.

2-المنهج التفكيكي وأسسه الفلسفية:

تعتبر التفكيكية من أهم المناهج النقدية التي يطلب بإلحاح كشف أسسها الفلسفية كأرضية جوهرية لفهم منطلقاتها الكبرى في النقد، وعليه سنحدد مفهومها وأصولها كما يلي:

2-1:مفهوم التفكيك:

في اللغة، يقال:" فككت الشيء: خلصته، وكل متشابكين فصلتهما فقد فككتهما، وكذلك التفكيك(17)، حيث يفيد " الفرز والفصل والتنقية، وجعل الشيء خالصا" (18).

في الاصطلاح هو " شكل من أشكال التفكير أفاد أصحابه والذين مارسوه من كل الانجازات الفكرية التي تحققت في مجال اللغة، والسيمياء والإناسة والتاريخ والابستومولوجيا والتحليل النفسي وسواها من الفروع التي شهدت طفرات معرفية أو ثورات منهجية...يقوم على تجاوز المنطوق والمطروح إلى المستبعد والمسكوت" (19) فهو منهج معاصر في الدراسات النقدية يقوم على استنطاق المهمش والمسكوت عنه والممنوع التفكير فيه، يستفيد من مختلف التطورات الحاصلة في العلوم الإنسانية وفي أدوات قراءة النصوص.

2-2أصول التفكيك:

يمكن أن نتحدث عن أصول التفكيك من خلال مجموعة من الفلسفات الكلاسيكية و المعاصرة والمناهج الجديدة والعلوم الإنسانية التي عرفها الفكر الفلسفي الغربي في الفلسفة والتي كانت متمردة على الفلسفات النسقية والعقلية التي انطلقت عند اليونان واستمرت حتى الفكر الحديث والمعاصرة، التي قامت على نقد الميتافيزيقا الغربية و فكرة اللوغوس التي قامت عليها ، وتفكيك خطابها العقلي ومنطقها المتعالي، و هي ما انتقلت فيما بعد إلى الخطاب العربي والإسلامي بصدد تعامله مع النصوص بشتى أنواعها كما نجدها عند أركون، وعلي حرب، وعبد الله محمد العذامي. وبالتالي لم يتأسس التفكيك إلا بتضافر مجموعة من الفلسفات والمناهج استفاد منها ديريدا، وذلك لأن "الأسئلة من قبيل: كيف نفكر بالاختلاف؟كيف نفكر في الاختلاف؟وكيف يكون تفكيرنا هو اختلاف؟ هي نتاج قراءة دريدا لهسرل وقراءاته لهيغل ونيتشه وهيدجر وفرويد ودوسوسير ومفهومه للعلامة"(20) ، إذن التفكيك ترعرع في أرضية فلسفية متعددة المشارب، تبين أنه يمكن أن يكون منهجا رائد في بناء ما يسمى بالنقد التكاملي للنص، ولكي نفهم هذا النموذج من الأولى أن نبحث في تلك الأسس، فكيف يمكن فهم أصول التفكيك من الفلسفات الكلاسيكية إلى الفلسفات والمناهج المعاصرة ؟

2-2-1-الفلسفات الكلاسيكية: لابد من الإقرار باستفادة التفكيكين من الفلسفات القديمة والوسيطية والحديثة، بحيث يعتقد الكثير من المفكرين أن التفكيكية تعتبر نموذجا للقراءة الذاتية "تمثل تنويعا وتطويرا للقراءات الباطنية (èsotirique) المتمثلة في التأويلات العنوصية والقبالية"(21)وذلك لوجود دراسات أثبتت تشابها بين مفاهيم دريدا ورموز القبالة عند متصوفة اليهود، وذلك لأنها ترتبط باللامعقول واللامنطقي الذي بقي حاضرا في جميع العصور بما فيها الفترة الحديثة والمعاصرة، بحيث ترد التفكيكية حسب 'إيكو 'إلى الأفكار الهرمسية والفلسفات الغنوصية ومقولات التصوف القبالي، لأن الهرمسية هي أول من أرسى مبدأ

الاختلاف وكسر مبدأي الهوية وعدم التناقض، في قولها بالكائن الذي يجمع بين المتناقضات، وعندما ارتبطت بالغنوصية في العصور الوسطى بينت أن الحقيقة ترتبط بأسرار غير محددة ولا متناهية وهي ما تنتقل إلى التفكيكية في رفضها إخضاع النص لدلالات محددة، والتي استوحتها كذلك من التصوف القبالي الرمزي الذي اعتمد على أن كلمات الإله لا تحتوي على دلالة منتهية ومحددة، وبالتالي هناك رابطة وثيقة بين تفكيكية دريدا والنزعة التأويلية التي وجدت في الهرمسية العرفانية القبالية من منطلق قولها بوجود أسرار لا منتهية ولا محددة في الكلمات وأفكار دريدا في قوله بأن النص عالم مفتوح، لا يمكن الإمساك بدلالاته وتحديدها بصورة نهائية.

إضافة إلى ذلك هناك فكرة جوهرية يجب الإشارة إليها بصدد الحديث عن الأصول الفلسفية الأولى التي استقى منها التفكيكيون أفكارهم، وهي فكرة –اللوغوس- LOGOS والميتافيزيقا اليونانية، اللذين كانا أرضية لهم في نقد ميتافيزيقا الحضور التي قامت على مركزية العقل وتطابق الفكر مع مقولاته واقتصرت على أن مفهوم الأشياء والموجودات بعينها يكون بوصفها أشياء حاضرة، حيث سادت الخطاب الفلسفي الغربي منذ أفلاطون إلى هيغل، الذي عبر عن تجلي الروح الواحد وتطابقه مع الوجود كتعبير أسمى عنه، و ثار عليها التفكيكيون في القول بفلسفة للغياب تقوم على تبديد الحضور باعتباره مجرد معطى لا يمكن الإمساك بهويته التي تتجدد استمرار في إطار اختلافات وعلاقات متعددة.

2-2-2-الفلسفات المعاصرة: تأثر التفكيكيون بالكثير من الفلسفات المعاصرة، وسنشير على نماذج منها وهي:

أ- الفلسفة الظواهرية:

تأسست مع هورسل (HUSSERL) وميرلوبونتي (MERLEAU-PONTY) 1908-1961انطلاقا من فكرة القصدية التي تبلورت أسسها الأولى مع 'فرانز برنتانوا'(BRENTANO) (1838، 1917) عندما ربط المعرفة بالاتجاه نحو المواضيع بالشعور، وبالجمع بين التصور والحكم و المحبة والكراهية، و هي فكرة انتقلت إلى أهم رواد هذه المدرسة وهو 'إيدموند هسرل' الذي بني من خلالها أبحاثه المنطقية والفينومونولوجية، والتي بين فيها ضرورة التحرر من كل رأي مسبق ووضع الوجود الواقعي للأشياء بين قوسين أو تعليقه، لحساب النظر "في خصائصها الجوهرية كما هي ماثلة في الشعور" (22) أو كما يوضحها الشعور أو تبدوا له، فالمعرفة فعل نفسي عند الظواهريين يقوم على الاتجاه من الشعور إلى موضوعه، وهي ما تعتبر نقدا للفلسفة العقلانية الجافة وفكرتها عن الماهيات المجردة والثابتة وقولها بالمقولات العقلية الثابتة التي تبلورت عند ديكارت (DESCARTES) ولوك (LOCKE) 1632-1704وهيوم(HUME) 1711-1776وكانط(KANT) -1724 1804، والتي كانت منطلقا للتفكيكيين الذين أدركوا من خلالها أن قراءة النص تعتمد على التفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي، وليست قائمة على ماهيات أو أفكار مجردة ومحددة سلفا، مما جعلها منطلقهم في نقد الميتافيزيقا التي تعبر أرضية جوهرية للتفكيك، نوضح أكثر أثر الفلسفة الظواهرية في التفكيكين من خلال تصور هورسل للعلامة أنها تحيل إلى دلالاتين،" دلالة التغيير، ودلالة الإشارة، وهذا يعني أنها كانت وسيلة لإيصال رسالة ما، وفي الوقت نفسه تشير إلى أشياء ودلالات أخرى يبلغها القارئ من خلال ثقافاته الذكية لهذه الرسالة" (23) و العلامة إذا أصبحت إشارة فإنها تحيل إلى معان متعددة ودلالات لانهائية، وهي ما تنتقل إلى رائد المنهج التفكيكي ديريدا في إطار الدعوة إلى التفكير في اللامفكر فيه أو المسكوت

عنه في الميتافيزيقا، كما يمكن اكتشافها في قوله بالاختلاف الذي يجعل النصوص الأدبية متميزة بين أديب وآخر وقارئ وآخر من حيث العملية النقدية.

ب-الفلسفة الوجودية: فالوجودية مذهب فلسفي معاصر مشتق من لفظ"الوجود" والذي لا يعني الوجود في شكله العام كما تصوره الفلاسفة القدماء وبحثوا في أصله، بل في الوجود الإنساني المشخص، الوجود الفعلي للفرد الإنساني، ومشكلات الفعلية للإنسان، وعلاقته بغيره من الأفراد الناس والمجتمع الذي يعيش فيه، وحرية الإنسان ومصيره ومعاناته والموافق الشخصية التي يتعرض لها، وتجارية الحية التي يمر بها (24).وقد ظهرت في روايات ومسرحيات وقصائد الشعرية ومقالات صحفية، حمل رايتها شخصيات فلسفية وأدباء من بينهم الأب الروحي للوجودية سورين كيركجورد(KIERKEGAARED)1855-1913 ، والرواد الآخرين من أمثال كارل ياسبرز (JASPERS)1883- 1969-وجبريال مارسيل(MARCEL)1889-1972، ومارتن هيدجر(HEIDEGGAR) 1889-1976-، وجون بول سارتر (SART) 1905-1980، والبير كامو(CAMUS)1913-1960،... أثرت مبادئها في رواد التفكيك برفض الحقائق المطلقة والثابتة والقبلية وللاهوتية وفي الهدم للميتافزيقا الكلاسيكية الذي أسسه هيدجر والذي كان منطلقا لإرساء الهدم من اجل البناء الذي حمل رايته ديريدا مستمدا إياه من مجموعة من المقولات من هيدجر و أهمها: "المعرفة واللغة وثنائية الغياب والحضور، ولا نهائية المعاني والدلالات، والثورة على القراءات المألوفة العادية، ونقد التمركز العقلي، وفلسفة الحضور والتناص " (25)، فالثورة على فلسفة الحضور وغيرها من الأفكار استمدها دريدا من أفكار هيدجر في قوله بكشف الحقيقة في المتحجب بناء على صعوبة الإمساك بها في الوجود الحاضر.

ج-الفلسفة العدمية: عندما نتكلم عن الفلسفة العدمية لابد أن نشير إلى أكبر روادها وهو الفيلسوف الألماني فريدرك نيتشه(NIETZSCHE) 1844-1900. المؤسس لها كفلسفة متمردة وناقدة للفكر الكلاسيكي و النسقي، والعدمية هي فلسفة جديدة تعبر عن ملامح إنسان القرن العشرين الراغب في التمرد على القيم العليا واستبدالها بقيم مفرطة في الإنسانية تعدم كل من شانه أن يمنع الإنسان من الحياة، فهي ثورة على الميتافيزيقا والأبولونية لحساب الدعوة إلى العودة إلى الأرض والدينوزوسية تتأسس على موت الإله، وزحزحة الميتافيزيقا، ورفض السلطة الدينية والمتعالية لحساب البحث فيما هو غامض مهمش مرفوض وخفي دون أي قيود الذي يعتبر منطلق مختلف دعاة التفكيك، وهناك نقاط كثيرة مشتركة بين ديريدا ونيتشه تظهر بالخصوص في مجال تحليل ونقد الميتافيزيقا اليونانية، مهاجمة العداء الفلسفي القديم للكتابة، إرساء مفهوم التناص الذي اعتمدته "التفكيكية في إرساء قواعدها النظرية، ذلك أن نيتشه يرى بأن الفلسفات جميعا، إنما تقوم الواحدة منها على الأخرى، فهي ترتكز على التناص المنتقل بين اللغات الرمزية"(26) وهو ما يظهر في التفكيكية التي تنطلق من الكتابات متناصة تجتمع فيها شخصيات مختلفة وأساليب متعددة يمكن أن تنتهي إلى فيض من المدلولات.

2-2-3-اللسانيات البنيوية:

إضافة إلى المرجعيات الفلسفية السالفة الذكر، ورغم أن التفكيكية قامت على أنقاض البنيوية كما يذهب بعض المفكرين بعد نقدها في وفائها لميتافيزيقا الحضور، إلا أن بعض الدراسات تذهب إلى إفادة دريدا (DERRIDA) من المصادر والفرضيات الأساسية لعلم اللغة السويسري تحديدا، إفادته من مبدأي اعتباطية

العلاقة بين الدال والمدلول، وانتفاء القيمة الذاتية للعنصر اللغوي و اعتماده في امتلاكها مع العناصر الأخرى في السلسلة أو النسق" (27) لأنه بالانطلاق منهما قال بأسبقية الكلام على الكتابة، فقد قام بتحليل لسانيات دوسوسير ونقدها، وبحث في ثنائية جوهرية في أفكاره، وهي ثنائية الكلام والكتابة، وبين أنها أحطت من قيمة الكتابة حين فصلت بينها وبين الصوت و تأسست على أن الكتابة ما هي "سوي تمثيل ثانوي وصورة خارجية واغتصاب ومسخ وجسد فان وسطحية فجة وحجب للحضور الطبيعي يمكن نفيها"(28) لذلك أعاد الاعتبار للكتابة وجعلها وثيقة الصلة بالصوت، واستبدل الاعتباط بالأثر كأصل لكل معنى ولكل دلالة.

خاتمة:

في الأخير نستنتج أن المنهجين السيميائي والتفكيكي، رغم ما عرفاه من تطور في الفترة المعاصرة مقترن بتطور المناهج والعلوم الإنسانية والاجتماعية إلا أن البحث عن أصولهما ومرجعياتهما، يجعلنا ندرك أنهما ، يضربان بعمق في التفكير الفلسفي القديم، حيث يمكن القول أنهما يعبران عن درجة من التطور في الفلسفات والمناهج فقط وذلك بناءا على ما يلي:

-السيميئات في مفهومها العام والمختصر هي علم العلامات، ترد إلى ممارسات قديمة تتعلق بالطب وبتنظيرات الفلسفة اليونانية والوسيطية وعلى رأسها المنطق الصوري أو الأرسطي وما عرفه من تطورات واستعمالات فيما بعد .

-السميائيات لها وجودا كبير ا في الممارسات الثقافية والفلسفية العربية والإسلامية، حيث ارتبطت بالسحر والطلسمات وعلم الفراسة...، كما ارتبطت بفلسفات الفارابي وبن سينا ...وبالتالي لا يمكن إنكار وجود جذور عربية وإسلامية لها تتمحور في مختلف الاهتمامات بالعلامة في تراثنا وثقافاتنا.

-السميائيات ترجع إلى الفلسفات الحديثة والمعاصرة وعلى رأسها أبحاث فلاسفة اللغة بزعامة 'دوسوسير' ثم أبحاث الفلاسفة البراغماتيين بزعامة 'بيرس' الذي تجاوز ربط السيميئيات باللسان إلى ربطها بالمنطق كقواعد للحصول على الدلالات من العلامات.

- التفكيك في مفهومه المختصر والعام هو آداة لقراءة النص يقوم على كشف المتحجب والمسكوت عنه وفضح ألاعيب أو مخاتلة النص، يرد إلى الفلسفات القديمة والوسيطية ولاسيما الهرمسية والتأويلية التي أكدت على باطن النص ومخاتلة ظاهره.

-التفكيك يرجع إلى مختلف الفلسفات المعاصرة كالظواهرية والوجودية والعدمية ...وغيرها من الفلسفات التي حاولت استنطاق المهمش والمسكوت عنه منذ تأسيسها الأول بتمردها على القيم وكل ما هو جاهز ومحاولة تفكيكه وخلخلته وكشف حجبه وآلاعيبه.

-السميولوجيا و التفكيك يعتبران اليوم من أهم أدوات قراءة النصوص الدينية والأدبية والفلسفية مع 'نصر حامد أبو زيد' و 'أركون 'و'علي حرب' ... وبالتالي لا مفر للمشتغلين عليهما وعلى مختلف المناهج النقدية المعاصرة من المعرفة بأسسهما لكشف أهميتهما وعلاقتها بالنصوص وحمولتهما الإيديولوجية ...ولاسيما عندما تطبق في لنص الديني والمقدس.

وبالتالي لا مفر من المشتغل على السميائيات والتفكيك، من الرجوع إلى الفلسفات القديمة والمعاصرة، ومن معرفة أبجديات المنطق الصوري والرياضي، ومن قراءة سيميولوجية وتفكيكية للمنهجين في حد ذاتهما من أجل القدرة على توظيفهما في قراءة النصوص ولاسيما تبيئتهما في قراءة النصوص المتعلقة بتراثنا العربي والإسلامي.

الهوامش:

1- ابن منطور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان لعرب ج 7، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2005ص284.

2-لمرابط عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب –من أجل تصور شامل- منشورات البحث النقدي ونظرية الترجمة –فاس المغرب، ط1، 2005.ص 15.

3--لالاند أندري، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، منشورات عويدات بيروت لبنان، ط2، 2001،ص 1292-1293 .

4-Umberto Eco ,le signe, édition , labor, p 31

5- بنكراد سعيد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سوريا، ط2، 2005، ص 25 .

6-جوليا كريستيفا، السميائية علم نقدي أو نقد للعلم، مجلة العرب والفكر العالمي،العدد الثاني 1988، مركز الإنماء القومي لبنان، ص 25 .

7- حمادي هواري، سيميائيات المنطق اليوناني، مجلة أيقونات، -السميائيات، المنطق والفن، منشورات 'سيميا' للبحوث السميائية، سيدي بلعباس الجزائر، العدد 2نوفمبر 2011. ص 17

8- بنكراد سعيد، مرجع سابق، ص 27.

9- حمادي هواري، مرجع سابق. ص 19.

10- لمرابط عبد الواحد، مرجع سابق.ص 25

11 -حمادي هواري، مرجع سابق. ص 25،

12- لمرابط عبد الواحد، مرجع سابق.ص 27.

13–ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة العلامة إبن خلدون، المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص 540.

14- لمرابط عبد الواحد، مرجع سابق.ص 27.

15- بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1984 .

16- بنكراد سعيد، مرجع سابق، ص 92.

17- ابن منظور، مصدر سابق، ص 85 .

18- محمد رضا حكيمي، المدرسة التفكيكية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2000، ص13.

19- حرب علي، الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط4، 2005، ص 24 .

20- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، المركز الثقافي العربي، ط1، 2002، ص 187 .

21- بن بوعزيز وحيد، قراءة في مشروع أمبرتوا إيكو النقدي، منشورات الاختلاف، الجزائر ،ط1، 2008،. ص101.

22- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر ،د ط/ 2012 ، ص484.

23- بشير تاوريت بالاشتراك مع الأستاذة سامية راجح، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر-دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية، ، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع دمشق سوريا ، ط1، 2008، ص 16 .

24- الدكتورين محمد مهران، ومحمد مدان، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، در قباء للطباعه والنشر والتوزيع، ، القاهرة، مصر، دط / 2004، ص 84.

25- بشير تاوريت، مرجع سابق، ص 18 .

26- المرجع نفسه، ص20.

27- عادل عبد الله، التفكيكية، دار الحصاد، سوريا، ط1، 2001، ص 37.

28- ابن بوعزيز وحيد، مرجع سابق، ص 111 .